بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الكريم تتان

قالتا أتينا طائعين

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

2011=1432
دار الفكر – دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

قالتا أتينا طائعين

الشيخ عبد الكريم تتان

الرقم الاصطلاحي: ٢٣١٩,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-288-3

الرقم الموضوعي: ٢١٠ (دراسات إسلامية)

٦٠ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

قالتا أتينا طائعين

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١/٤١] وثمة سؤال يتبادر إلى الذهن في هذه الآية وأمثالها ومضمونه: هل القول في الآية على سبيل الحقيقة أو المجاز؟ أهو من باب تمثيل المعنى أم هو خطاب تلقاه المخاطب واستجاب للمطلوب منه؟

قد رجعت إلى مجموعة من التفاسير المعتبرة لأقف على ما قدمت، ولأخلص بعدها إلى ما يطمئن إليه القلب ومرجحات ذلك بهذا الشأن، وأجدني هنا بداية أسوق مجموعة من الأمور التي أراها ضرورية لتجلية المعنى على قواعد قد اتفق عليها، أو نصبت ليقام عليها صرح التفسير، لكن بعدما أتناول ما جاء في التفاسير لهذه الآية:

* ففي (جامع البيان في تأويل القرآن):

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١/٤١] أي: فقال الله للسماء وللأرض: جيئا بما خلقت فيكما؛ أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر و...، وأما أنت يا أرض فأخرجي

ما خلقت فيك من الأشجار والثمار... وشققي من الأنهار.....قالتا: جئنا بما أحدثت فينا من خلقك مستجيبين لأمرك، لا نعصي أمرك.

ثم قال: وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وساق حديث ابن عباس من أكثر من طريق، وسنذكره لاحقاً عند كلام القرطبي.

ثم علل مجيء قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ دون "طائعتين"، وساق ما قاله العلماء في ذلك، ومما قال: قيل ذلك كذلك لأنهما لما تكلمتا أشبهتا الذكور من بني آدم....

* ونجد لدى الألوسي قوله:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ أي: ائتيا بما خلقت فيكما من المنافع... وفعل الأمر "ائتيا" للتسخير، فقوله: ﴿ٱئْتِيَا﴾ أي: كونا واحدثا على وجه معين، وفي وقت مقدر لكل منكما، والمراد هنا إثبات ذاتهما وإيجادهما، وعليه فالأمر (للتكوين).

قوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتم تأثير القدرة فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك، لا لإثبات الطوع والكره لهما.

قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾: تمثيل لكمال تأثرهما عن القدرة الربانية، وحصولهما كما أُمرا به، وتصوير

لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة، فإن (الطوع) منبئ عن ذلك، و(الكره) موهم لخلافه.

قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾: جمع مذكر سالم مع اختصاصه بالعقلاء، باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب.

* وقال القرطبي في تفسيره (الجامع):

قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا﴾ أي: جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح، وأخرجاها لخلقي، قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك وكوكبك، وأجري رياحك وسحابك، وقال للأرض: شقي أنهارك وأخرجي شجرك وأثمارك، طائعتين أو كارهتين.

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ثمة محذوف تقديره (أتينا أمرك)، وقيل: معنى هذا الأمر التسخير أي: كونا فكانتا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٤٠]، وعلى هذا، قال ذلك قبل خلقهما، حيث كانا في العلم، وعلى القول الأول؛ أي: (أخرجا) قال ذلك بعد خلقهما، وهو قول الجمهور.

قال: وفي قول الله تعالى لهما وجهان: أنه قول تكلم به..، والثاني ذكره الماوردي: أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد.

قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا﴾ ففيه وجهان أيضاً: ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام ذلك مقام قولهما، وساق قول الراجز:

امتلأ الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

يريد: ظهر ذلك في الحوض، وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام، فتكلمتا كما أراد الله تعالى، قال أبو نصر السكسكي: فنطق من الأرض موضع الكعبة، ونطق من السماء ما بحيالها، فوضع الله تعالى فيه حرمه. وقيل: لما وصفهن بالقول والإجابة، وذلك من صفات من يعقل، أجراهما في الكناية مجرى من يعقل، ومثله قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤].

* وفي (التفسير الكبير) للرازي:

قال: لا نزاع أن قوله تعالى لهما كناية عن إيجاد السماء والأرض، وسأل ليكشف عن الفائدة من هذه الكناية، وأجاب، فقال: ما الفائدة من هذا التعبير ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ﴾؟ فالجواب: إظهار كمال القدرة،

والتقدير: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما...، وما المراد من قوله: ﴿أَتَيْنَا﴾ و﴿أَتَيْنَا﴾؟ فالجواب: المراد ائتيا إلى الوجود والحصول، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢]، قال: وقيل: المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف؛ أي: بأرض مدحوة قراراً ومهاداً، وبسماء... ومعنى (الإتيان) الحصول والوقوع على وفق المراد.

وقال يبين السر في الإتيان بعبارة ﴿طَآئِعِينَ﴾ بدلاً من "طائعتين": هلا قيل: "طائعتين" على اللفظ، أو "طائعات" على المعنى: سموات وأرضون؟ فالجواب: لما جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: "طائعين" في موضع "طائعات".

* ولدى السمعاني في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾: منهم من قال: هذا كله على طريق المجاز، وليس على طريق الحقيقة، وكأن الله تعالى لما أجرى أمرهما على مراده وتقديره جعل ذلك بمنزلة "قول منه وإجابة منهما" بالطواعية، وقد جاء عن العرب مثل ذلك.

وقال بعضهم: إن القول والإجابة على طريق الحقيقة، وركب في السموات والأرض ما عقلا به

خطابه، وأجاباه بالطواعية، وهذا هو الأولى؛ إذ التعامل مع النصوص الأصل فيه إجراؤها على الحقيقة، ما لم تتعذر، وهنا لا يوجد ما يحيلها كما سنبين لاحقاً، وعن ابن السماك في موعظة له: سل الأرض من غرس أشجارك وأجرى أنهارك وأخرج ثمارك، فإن لم تجبك اختياراً أجابتك اعتباراً!!.

ثم قال: وإن قيل: كيف قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ وكان من حق اللغة أن يقول: "طائعات"؟ قلنا: إنما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ لأنه لما جعلها بمنزلة من يعقل في الخطاب معها وجوابها، ذكر الكلام على نعت العقلاء، ولدى العز بن عبد السلام قال لهما قبل خلقهما: (تكونا) فتكونتا، كقوله لكل شيء: «كن»، أو: أمرهما بعد خلقهما - كما عند الجمهور- بأن تعطيا الطاعة في السير المقدر لهما، أو: أمرهما بالطاعة والمعرفة، أو: ائتيا بما فيكما، أو: كونا كما أردت من شدة ولين وحزن وسهل... كلمهما الله بذلك، أو ظهر من قدرته ما قام مقام الكلام في بلوغ المراد.

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: أعطينا الطاعة، أو: أتينا بما فينا، فأتت السماء بما فيها من الشمس و...، وأتت الأرض بالأشجار و... تكلمتا بذلك، أو قام ظهور طاعتهما مقام قولهما.

* وفي (تفسير ابن كثير):

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ قال للسموات: أطلعي شمسك و.....، وقال للأرض: شققي أنهارك و ...﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾. قال: واختاره ابن جرير رحمه الله، ونقل عن ابن جرير: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما، وقيل: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة أو من السماء ما يسامته منها كما مر آنفاً..... والله أعلم....

* وجاء في تفسير (المنار):

فهذا القول للسماء والأرض قول تكويني، لا تكليفي، فهو من قبيل قوله تعالى للشيء: "كن فيكون".

وأيضاً قولهما: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ تكويني؛ فهو عبارة عن كونهما وجدتا كما أراد الله أن توجدا عليه، فهو كما يجيب العبد العاقل نداء مولاه إذا استدعاه، ففيه تشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به حالاً بطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع... أقول: ولو قال صاحب المنار: "عند تعلق القدرة به حالاً"، لكان مصيباً؛ إذ الإرادة تعلقت بالممكنات أزلاً تعلق تخصيص، وقد خصصت الممكن أزلاً ببعض ما يجوز

عليه، وتخصيصها الممكن الأزلي يظهر بعد ذلك - فيما لا يزال - عند تعلق القدرة به تعلقاً تنجيزياً حادثاً، كما هو مقرر في علم التوحيد.

* وفي (نظم الدرر):

لما جعلهما؛ أي السموات والأرض، موضع المخاطبة التي هي للعقلاء والتكلم قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾، جامعاً لهما باعتبار أفرادهما وما فيهما جمع من يعقل.

* وجاء في (مفاتيح الغيب):

فقال لهما: كناية عن إيجاد السماء والأرض.

* وفي (ظلال القرآن) للسيد قطب رحمه الله تعالى:

إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته... وفي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٦٧/٨] وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ [ق: ٥٠/٣٠] جهنم هنا مخلوقة حية تكظم غيظها من الكافرين. والتعبير في ظاهره يبدو مجازياً تصويرياً لحالة جهنم، ولكن فيما نحس يقرر حقيقة؛ فكل خليقة من خلائق الله حية ذات روح من نوعها،

وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده، وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه... وقد وردت هذه الحقيقة في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود، وقد جاء بصريح العبارة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤]، وورد ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٠]، تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل... ثم يسوق قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ مما يحتمل أن يقال فيه: إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله، ولكن هذا التأويل لا ضرورة له، بل هو أبعد عن المعنى المباشر الصريح، ووردت صفة جهنم هنا ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨٨-٩٢]، ثم قال: وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة، حقيقة إيمان الوجود كلِّه بخالقه، وتسبيح كلِّ شيء بحمده، ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر، ويشذ عن هذا الموكب،

وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق، كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه، فيغتاظ ويحنق.

* وفي (غرائب القرآن ورغائب الفرقان):

عند قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: للمفسرين فيه قولان:

الأول: إجراء الكلام على ظاهره، فإنه ليس بمستبعد من الله إنطاق أي جسم فرض، بل إيداع الحياة والفهم فيه... أقول: وكذا عصا موسى عليه السلام بانقلابها إلى حية تسعى، بعدما كانت خلايا نباتية راسخة في اليبس، وتستعمل في أغراض شتى.. قال: ولهذا قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ جمع المذكر السالم، وعلى هذا (القول) لابد أن يكون هذا التخاطب بعد الوجود.

والقول الثاني: هذا تمثيل لنفوذ قدرته فيهما، ولا قول ثمة، وعلى هذا لا يبعد أن يكون المقصود إيجادهما على وفق إرادته وهما في حيز العدم.

* وفي (أضواء البيان) لمحمد الأمين الشنقيطي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

﴿وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢] أثبت لهذه العوالم إدراكاً وإشفاقاً من تحمل الأمانة.... ولم يكن هذا العرض مجرد تسخير، ولا هذا الإباء مجرد سلبية، بل عن إدراك تام. فأنت ترى أنه قد أثبت لهذه المخلوقات الضخمة إدراكاً ترتب عليه اتخاذ موقف يتناسب مع خطورة التحمل!!

* وقال صاحب (البحر المديد):

معنى أمر السماء والأرض بالإتيان أنه أراد أن يكوِّنَهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أراد، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع. فقوله تعالى لهما: ﴿ٱئْتِيَا﴾ على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائت يا أرض مدحوة قراراً....

قوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: لبيان تأثير قدرته فيهما، وامتناعهما عن قدرته تعالى محال... إذ هما من الممكنات، ولا يتأبى ممكن مهما كان على قدرته، وهذا ما ألحت به الآيات مثل قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٥/ ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا﴾: المراد تنجيزهما لما أراده منهما.

* وفي (التحرير والتنوير):

قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا﴾: أمر تكوين، والقول موجه

لكل من السماء والأرض، وهو قول تكوين؛ أي: تعلق القدرة بهما؛ أي: بمادة تكوينهما. الإتيان: أصله المجيء والإقبال. ومعناه الحقيقي غير مراد؛ إذ لا يتصور منهما أن يأتيا، ولا يتصور منهما طواعية أو كراهية؛ إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات، فيتعين الصرف عن المعنى الحقيقي بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا.

الأول: أن يكون الإتيان مستعاراً لقبول التكوين، كما استعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٢] وقول النبي ﷺ لمسيلمة حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة: " لئن أدبرت ليعقرنك الله "، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان. فمعنى: ﴿ٱئۡتِيَا﴾ امتثلا أمر التكوين، وهذا الامتثال مستعار للقبول، وهو من بناء المجاز على المجاز، وله مكانة في البلاغة، والقول على هذا الوجه مستعار لتعلق القدرة بالمقدور كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢]، وقوله: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ كناية عن عدم البعد من قبول الأمر، وهو تمثيل لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى، فكلمة طوعاً أو كرهاً جارية مجرى الأمثال.

والوجه الثاني: أن تكون جملة ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ مستعملة تمثيلاً لهيئة تعلق قدرة الله لتكوين السماء والأرض لعظمة خالقهما، بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق، أن يقول له: ائت لهذا العمل طوعاً أو كرهاً، لتوقع إبائه من الإقدام على ذلك العمل، وهذه من دون مراعاة مشابهة أجزاء الهيئة المركبة المشبهة، والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهية، ونفوذها في المقدورات دقت أو جلت.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ يجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعاراً لدلالة سرعة تكونهما؛ لشبهها بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية؛ فإنه لا يتردد ولا يتلكأ على طريقة المكنية والتخييل، من باب قول الراجز: امتلأ الحوض وقال قطني. وقد مر، وقال: القول والإتيان والطوع تكون مجازات، أو تكون حقائق، على أن يكون ذلك تمثيلاً لهيئة تكون السماء والأرض عند تعلق القدرة بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقبله عن طواعية، وهما اعتباران متقاربان.

وقال: وكون التعبير جاء بصيغة جمع العقلاء ﴿طَآئِعِينَ﴾، فهذا ترشيح للمكنية على غرار ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤].

وأقول: لا يخفى ما جاءت به اللغة في أساليبها؛ حيث أسبغت على ما لا روح فيه روحاً وشخّصته، وجعلته فاعلاً ومنفعلاً ومسروراً وغاضباً وشاكياً.

فالبحتري قديماً قال:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ألا ترى معي أن الربيع هنا قاصد للمخاطب ومتجه إليه، وقد نضح به التعبير (أتاك)؟! كذلك وصف الربيع باختيال المزهو بقامته أو شبابه ونضارته، وضحكه حيث تفجر حسناً، وكاد لروعة طلعته أن يتكلم!!! ثم ألا سمعت بذلك الوصف الدقيق لأحاسيس فرس عنترة، وهو يخوض بها غمار المعركة:

مازلت أرميهم بثغرة نحره
ولبانه حتى تسربل بالدمِ
فازْوَرَّ من وقع القنا بلبانه
وشكا إليَّ بعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ
لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي

* وجاء في (الدر المصون):

بعدما طرح السؤال التالي في الآية موضوع

البحث: هل هذه المحاورة على الحقيقة أو على سبيل المجاز؟ خلاف، وإن كانت مجازاً فهل هو تمثيل أو تخييل؟

وأنت ترى أن طرحه هذه الأسئلة يدل على إمكانية كل من الأجوبة المجاب بها، ولكل جواب دليله، وما به رجح ما ذهب إليه، وهذا إن دل فإنما يدل على أن من حمل على المجاز، دفعه إلى ذلك استبعاده الحقيقة، ولكن هذا الاستبعاد لا يدخل الحقيقة في الاستحالة العقلية؛ إذ هي لا تقبل الثبوت بحال، بخلاف الاستحالة العادية، فهي بحكم العادة ترفض، لكنها قابلة للثبوت عقلاً، وأقصد (بالاستحالة العادية) ذلك الممكن في ذاته، لكنه نادر الوقوع، أو خفي الوقوع، حيث إنه يقع لكنه يخفى عنا، فبعده عن المخزون الحسي لدينا يدفع بادي الرأي إلى استبعاده، وربما يذهب ناس إلى إنكاره، وجعله من جنس المستحيل عقلاً، وليس بعيداً عنا مسألة النزول على سطح القمر، وتلقي الكثيرين لها بالنفي، هذا، وقد جاء في التعبير القرآني مسألة استبعاد الممكن، وهو يكشف لنا عن موقف المشركين من الآخرة واستبعادهم لها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٧٠/٦-٧]، على معنى أنه - في رأيهم - لا يقع، أما في نظر الحق فواقع لا محالة.

* جاء في (اللباب في علوم الكتاب):

قال: لا نزاع في أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ [فصلت: ٤١/ ١١] كناية عن إيجاد السموات والأرض.

وساق قراءتين؛ قراءة العامة ﴿ٱئْتِيَا﴾ [فصلت: ٤١/ ١١] أمر من الإتيان، وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ [فصلت: ٤١/ ١١] من هذا المعين، وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد: "آتيا" "قالتا آتينا" وهو من المؤاتاة، وهي الموافقة، ليوافق كل منكما الأخرى لما يليق بها. قال: ووزن (آتيا) فاعلا، ووزن (آتينا) فاعلنا. أو: هو من (الإتيان) بمعنى الإعطاء، والتقدير: أعطيا الطاعة من أنفسكما من أمركما، قالتا: أعطينا الطاعة.

ثم قال: ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان فأطاعوه، وهذا ليس بمستبعد، كما أن الله تعالى أنطق الجبال مع داوود فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٠]، وأنطق الأيدي والأرجل فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١]، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السموات

والأرض حياة وعقلاً، ثم يوجه التكليف عليهما؟ ويؤكد هذا المعنى وجوه، منها:

- أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إن منع منه مانع، وهنا لا مانع.

- أن جمعهما جمع العقلاء ﴿طَآئِعِينَ﴾، وهذا يدل على نوع إدراك.

- أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢]، وهذا يدل على كونها عارفة عالمة بتوجيه التكليف إليها... وقد أجاب ابن الخطيب عن هذا القول: بأن المراد الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول، فعلى هذا التقدير؛ فحال توجه هذا الأمر حيث كانت السموات والأرض معدومة!! إذ لو كانت موجودة فذلك الأمر لا يجوز، فثبت أن حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة. وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب، فلم يجز توجه الأمر عليها.

ويلاحظ هنا أن النص على أمر الجبال بالتأويب مع داوود دال على أنه على الحقيقة، لا على لسان الحال إذ الجبال تسبح مع جملة من يسبح، وربط الفعل ﴿أَوِّبِى﴾ بالمعية مع داوود دال على أنه أمر خاص.

* وفي (النكت والعيون):

قال الله تعالى ذلك أي: ﴿ٱئۡتِيَا﴾ قبل خلق السموات والأرض، فيكون الأمر الموجه على معنى (كونا) فكانتا، وقول الجمهور أنه قال لهما: ﴿ٱئۡتِيَا﴾ بعد خلقهما. ويكون على ذلك في معنى ﴿ٱئۡتِيَا﴾ أربعة تأويلات:

- أعطيا الطاعة في السير المقدر، ونقل عن سعيد بن جبير.
- ائتيا عبادتي ومعرفتي.
- ائتيا بما فيكما، حكاه النقاش.
- كونا كما أمرت من شدة ولين و... قاله ابن حجر.

وفي قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ﴾ وجهان:

١- هو قول تكلم به.

٢- هي قدرة قد ظهرت لهما، فقام مقام الكلام في بلوغ المراد.

وفي المراد من إجابتهما ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا﴾:

١- أنه على معنى أعطينا الطاعة. رواه طاووس.

٢- أو: أتينا بما فينا. قاله ابن عباس.

وفي معنى القول المسند إليهما أي: ﴿قَالَتَآ﴾ وجهان:

١- ظهور الطاعة منهما قائم مقام قولهما.

٢- أنهما تكلمتا بذلك، قاله أبو النصر السكسكي.

* في الوسيط للطنطاوي: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾: بيان لما وجه إليهما من أوامر، والمراد بإتيانهما الانقياد التام لأمره.

ونقل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، كما نقل ما قاله الفخر الرازي: المقصود من القول: إظهار كمال القدرة.

* وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي:

رجح قول من ذهب إلى أنهما - أي السموات والأرض- نطقتا نطقاً حقيقياً، وجعل الله لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما، وترجيحه جاء بعدما ذكر أن المفسرين: منهم من ذهب إلى أن ذلك (مجاز)، وأنه ظهر منهما عن اختيار الطاعة والتذلل والخضوع ما هو بمنزلة القول، وقد نقله عن ابن عطية ثم قال: والقول الأول أحسن؛ أي ما رجحه؛ لأنه لا شيء يدفعه، وأن العبرة فيه أتم، والقدرة أظهر.

* وفي الكشاف للزمخشري:

قال في قوله تعالى: ﴿ائْتِيَا﴾: يعني أمره السماء

والأرض بالإتيان وامتثالهما لذلك، أنه أراد تكوينهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وجاءتا في ذلك كالمأمور المطيع إذ أورد عليه فعل الآخر فيه، والغرض: تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد: سل من يدقني، فلم يتركني وراء الحجر الذي ورائي. هذا، وقد جعل الزمخشري قراءة ﴿أَنَيْنَا﴾ "آتينا"، من المواتاة والموافقة.

ونقل البغوي عن طاووس عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا﴾ أعطيا، يعني: أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصلحة العباد، ونقل حديث ابن عباس المذكور سابقاً.

وفي هذا السياق أعرض مجموعة من الحقائق التي جاءت بها نصوص كثيرة، تصب في هذا المسار التعبيري، وتشي بخفايا لا تقع عليها الحواس مباشرة.

أخبر الله تعالى عن النمل بقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨/٢٧]، فأثبت لها القول، ولا يشترط في نسبة القول إليها هنا الصوت، ولا جهاز التكلم الذي لدى الإنسان، فهو قول قالته

يتناسب مع خلقتها. وربما وجدنا من تتبع هذا في عالم النمل فوجد أن إشارات كيميائية تتراسل بها النمل فتقوم مقام التعبير فيما بينها، أو هكذا فهمنا، ومثل هذا ما يتعامل به النحل من وسائط التفاهم والاتصال فيما بينها.. وعلى هذا يكفي في إثبات ما أوتي النمل من إدراك حسب قولها ما يستعصي على بعض العقلاء ما جاء من تفاصيل لحركة الجيش، وما يترتب عليها، وما حذرت منه وما دعت إليه، حيث قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨/٢٧]، فأنت ترى أنه قد أحاط إدراكها بمجيء الجيش، وأنه لسليمان، وأنه سيمر على وادي النمل، وأنه سيحطم من لا يتوارى عن مسيره، وأنها برأت سليمان وجنوده من التحطيم عمداً لمعاشر النمل، وبهذا يتضح إدراك الحيوانات قياساً على حال النمل، وبدراسة سلوك كثير من الحشرات تقف على ما يبهر من دقة الأداء، وروعة التنظيم، والقيام بمهام خلقت لها، ومسألة (هداية الفطرة) أتت بها كثير من الآيات، وهي ثابتة بأكثر من نص، وإن غاب عنا أمرها لولا ما جاء به النص... ومن الآيات التي رصدت ظاهرة الهداية العامة الشائعة في كل المخلوقات قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي

خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١-٣]، وما عرضه موسى عليه السلام على فرعون وملئه، وهو يدعوهم إلى الله جل جلاله ويبين من آثار قدرته وتدبيره لهذا الكون العريض، وذلك بعدما سأله فرعون قائلاً: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٩]؟ فأجاب يعرف بالله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٥٠].

وقد رصدت آيات من كتاب الله تعالى مواقف دالة على نوع إدراك دقيق ذكي أبداه طائر صغير، هو الهدهد، ما كان يظن أن يتصف به بحسب المعرفة الظاهرية، وإليك هذا المشهد مركزاً ما استطعت، قال تعالى يعرض علينا ما كان من سليمان عليه السلام وهو يدبر أمر مملكته: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٠-٢١]، يطالعنا من النص مجموعة من المعاني والحقائق، منها: أن سليمان عليه السلام مع كونه رسولاً، وآتاه الله من الملك ما لم يؤت أحداً غيره؛ إذ سخر له من الجن والشياطين والريح تجري بأمره إلى حيث يشاء، ما كان يدري عن أهل مأرب، وما كانوا عليه، ما أحاط به هدهده! كذلك إدراك الهدهد أموراً

ربما غفل عنها العقلاء، وهنا أعرض جوانب من هذا الإدراك ناشراً ما انطوى عليه تعبيره ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢/٢٧]، والذي واجه به سليمان لما حضر بين يديه يعلل به غيابه الذي أثار غضبه عليه السلام عليه حيث غاب دون أن يستأذن، قد تضمن شرح الهدهد لما وقف عليه من أمر مملكة سبأ جملة من القضايا الخطيرة والهامة، نلخصها بما يلي:

- إدراكه أنه أحاط بما لم يبلغ سليمان علمه، وهذه دقيقة عجيبة لمن تأملها! لأنها دلت على درايته بما لدى سليمان من علم، وأن ما حصل الهدهد من معارف قد غاب عنه!

- معرفته بسبأ بعينها، ورجوعه منها بعد زيارة قصيرة هادفة، يعلم بها فن السياحة البانية للذات، زيارة خاطفة رجع منها بتقرير موجز مركز، رجع "بنبأ" وصفه باليقين، وهذا يرجع إلى آداب نقل الأخبار، والتثبت منها قبل نشرها، فهو - على هذا - على دراية راسخة بما وقع عليه من مدركات!!

- وقوفه على تولية القوم لامرأة تحكمهم، مع لمسة إنكار لهذا المسلك، وهذا يمد في أفق المعرفة الهدهدية؛ إذ غطت جانباً سياسياً اجتماعياً، وهذا يطل بنا أو يميط لنا عن عالم حسي وراءه عالم

الإدراك في بواطنه، وإن كانت الظواهر منه لا تشي به بادي النظر؛ إذ الحس هنا قد حجب عبق هذا الباطن الموار! وفيه دفعة للبشرية ألا تكتفي بالظواهر للحكم على الأشياء، بل يدعو - بناء على هذه الإضاءة القرآنية - إلى فحص جديد لما حولنا، ومن منطلق الإشارة في الآية التي أضاءت ما يكشف من حقائق دون أن تفصل، أو تبسط كل البسط ما أضاءته، ولعلها تركت للجهد البشري أمر الاستكشاف لتكون المعرفة من حصاد هذه الجهود، ومن منطلق أن الكون كله قد سخر للإنسان، ولا يمكن - كما هو بدهي - أن يستفيد مما سخر إلا بالوقوف على الطاقات المذخورة في هذا الكون العريض، والمفعم بالأنواع التي لها ظواهر وبواطن؛ من جماد ونبات وحيوان وإنسان، ومن طاقات مائية وشمسية وهوائية، وكيفيات توظيفها!

- إدراك الهدهد لما أوتيت ملكة سبأ من متاع الحياة الدنيا، وشبه الإحاطة بأنواعها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٣].

- وصف العرش الذي تجلس عليه الملكة بالعظيم، وإدراك العظمة يرجع إلى مقاييس يفصل القول فيها

أهل الخبرة، ولولا امتلاك الهدهد لها لما كان له أن يأتي بهذا الوصف!!

- ومنها: قضية الشرك بالله تعالى الذي يناقض التوحيد الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام قاطبة، وهذه من معين العقائد التي يتولى أمر البحث بها أهل الفكر، إنه أدرك أن ما عليه أهل المملكة من عبادة غير الله تعالى؛ حيث كانوا يسجدون للشمس من دون الله، باطل كل البطلان. فالشمس المخلوقة والمسخرة لهذا الإنسان كيف يُسْجَد لها؟! والأروع منه بيان موقفه القوي النافر من هذا السجود؛ فهو لم يكتف بالقول: "إن هذا منكر، ولا ينبغي"، بل دعا في نفسه إلى السلوك السوي الذي ينسجم مع حقائق الكون، وهو السجود لله تعالى الذي أحاط بذرات الكون العريض علماً، والذي عرف عنه أنه سبحانه ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٥].

- ثم وقوفه على دور الشيطان في الإضلال؛ حيث زين لهؤلاء عبادة غير الله، وقد وقعوا في شباك تزيينه؛ وفي هذا رصد دقيق للنشاط الشيطاني في دروب تزيين الباطل والصد عن سبيل الله الذي جاءت الرسالات من الله لتعيد الإنسان إلى رحابه..

- ثم أنت ترى أن سليمان عليه السلام قد استقبل كل ما زفه الهدهد من أخبار وبين من مواقف، استقبالاً لم يتوقف فيه عند القبول، وإن كان وقف موقف المستثبت، والذي دل عليه قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٧]. فهو يطرح هنا قضية من مدركات الهدهد، هي قضية أخلاقية، تقوم على أساس قبول الصدق، وتبنيه، ورفض الكذب، واتخاذ موقف صارم من الكاذب، مع مسألة التثبت من صدق ناقل الخبر لما ينقل، وهذه قضية شرعية، إهمالها يفضي إلى إصابة قوم بغير حق؛ قوم نقل عنهم خبر كاذب، وأدى إلى اتخاذ موقف حاد منهم من قبل المنقول إليه الخبر، ما أحرى وسائل الإعلام اليوم أن تتتلمذ في هذه المدرسة الراشدة في دقة نقل الأخبار ودقة تلقيها!! ولنسمها (المدرسة السليمانية في كيفية تلقي الخبر)، وهي مطروحة في كتاب الله عبر سيرة سليمان عليه السلام. ثم يختم هنا، بما يتعلق بقضية التثبت، أن سليمان عليه السلام قد كلف الهدهد نفسه بحمل رسالة التثبت[1].

هذا، وقد تساءل الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى

(١) للمزيد انظر: تفسير أضواء البيان، عند الآية الأولى من سورة الحشر، ٨/ ١٧٠.

فقال: "كيف يحيط الهدهد، وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحط به سليمان، وهو النبي الملك الذي حكم الإنس والجن في زمانه؟ وأجاب عن هذا التساؤل: بأن الله تعالى يأتي بآية تميز الأدنى عن الأعلى، ليعلم الجميع أن كل قدراتهم منه سبحانه "، وليست بذواتهم، وهو درس بليغ في المعرفة، وفي شهود فضل الله على الناس، ويصب في هذا الإطار ما كان من أمر موسى عليه السلام مع الرجل الصالح حين عرض عليه أن يصحبه ليتعلم منه، مع كونه رسولاً ومن أولي العزم من الرسل، والخضر دونه في هذا الشأن!!وقد سجل في خزائننا الفكرية السلوكية توظيف لهذه الحقيقة؛ إذ ورد أن الحسين بن فضل دخل يوماً على أحد الخلفاء، وفي مجلسه نخبة من أهل العلم والفكر، فأحب أن يتكلم، فمنعه لكونه صغيراً، وقال: أصبي يتكلم في هذا المقام؟! فقال الحسين: "إن كنت صبياً، فلست بأصغرَ من هدهد سليمان، ولا أنت أكبر من سليمان، حين قال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٢]".

وتظل لمسات في هذا السياق؛ منها أن التعبير بمنطق الطير الذي آتاه الله تعالى لسليمان كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ٢٧/١٦]

يدل أن للطير نوع إدراك، وليس مجرد لغة تتعارف الطير بها فيما بينها. ومنها أن الهدهد لما عاد من غيبته، ومثل بين يدي سليمان، وكان درى أنه غاضب، بدأ بما بدأ به حيث قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، ليجعل من ذلك مفاجأة تطغى على مسألة غيابه التي هدد سليمان بها أن يعذبه عذاباً شديداً، أو "ليذبحنه"، " أو ليأتيني بسلطان مبين". فكان التوافق بين الموقف الغاضب من غيابه دون إذن، كما يفهم من سياق الآيات، وبين ما يدرأ به عن نفسه مقتضيات هذا الغضب، فكانت بداية ذكية، ربما لا تتأتى لبعض بني آدم. ولذلك، وبعدما ضمن إصغاء الملك له بعد هذا المطلع، أخذ يفصل في أمر (النبأ اليقين) الذي أتى به من سبأ جراء رحلته، وبهذا سرى عن نفس سليمان الغضب، فلم يلتفت إلى سببه.

وما أَطَلْتُ النَّفَسَ في رحاب الهدهد، هذا الطائر الصغير حجماً، إلا لأبين أن كثيراً من الظواهر تحجب وراءها ما يموج في بواطنها من مدارك وحقائق وطاقات، والحكم عليها من خلال الظاهر فحسب لون إجحاف في حق الحقيقة، وحسبنا دليلاً على هذا هذا الهدهد، وما نضحت به سيرته التي اعتنى بها التنزيل آيات تتلى في المحاريب!! وكي لا نحجر الأمر على

الكوائن الحية أجدني أسوق قوله عليه الصلاة والسلام، وهو يكشف لنا عن جانب من جوانب الإدراك في هذا الكون الذي نتعامل معه على أنه جماد أو نبات، ليس فيه سوى الحياة النباتية، قال رسول الله ﷺ، وهو الأدرى بأسرار هذا الكون بما أعلمه الله إياه، وبما أطلعه عليه: "لا يسمع صوت المؤذن مِن جِنٍّ، ولا إنس، ولا شجر ولا مدر، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة"(١). وبم يشهد إن لم يكن مدركاً للأذان وعمن صدر؟ فالشهادة هنا دليل إدراك الشاهد بمضمون ما يشهد به، وله، وهو الأذان والمؤذن، علماً أن هذه الشهادة شهادة صادق بخصوص النبات والجماد؛ إذ إنها لا تعرف الكذب بحال، ولذا كانت مقبولة في حكم القضاء الإلهي!، وأما شهادة الإنس والجن فهي هنا قدرية، تنأى عن التزوير، وروى سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه أو عن شماله، من حجر أو شجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا"(٢). ثم إننا نقرأ في

(١) في: صحيح كنوز السنة: برقم ١٧ - ١ / ٢٠٩، وكذا في: ابن ماجه.

(٢) في: سنن الترمذي: برقم ٨٢٨، وفي الجامع الصغير: ٤/ ٢٤، ٣/ ٧٧، برقم ٨١٠٧.

أواخر سورة الحشر قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢١] وفيها ما يدل على الاستعداد الكامل للتفاعل مع كلام الله تعالى من قبل الجبال، والخشية أثر العلم بالمخشي!!! وكذا في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٤]. وهذا - كما ترى - عين الإدراك في كل من الجبل والحجارة.

وهذا يتصل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٤]، حيث أخبر عليه الصلاة والسلام، وهو في معرض بيان ما أنزل الله إلينا، أن الأرض تشهد على الإنسان بما فعل عليها. وعن إدراك الطير، قال تعالى عن الهدهد وهو يخاطب سليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٢] الآيات، وقد حدد المفسرون من كلام الهدهد هذا لسليمان مجموعة من القضايا الخطيرة التي أدركها جراء توجهه إلى سبأ، أدركها الهدهد وأفصح عنها لسليمان، وقد ألممنا بطرف طيب من مدركاته.

وفي الحديث عن فضل يوم الجمعة[1]: قال رسول الله ﷺ: ".... وما من دابة في الأرض إلا وهي تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة حتى طلوع الشمس، إشفاقاً من الساعة، إلا الجن والإنس". وسر استثناء الإنس والجن أنهم مكلفون.

وهناك - كما ورد في الحديث - جمل قد ند عن أهله، ثم خضع للرسول عليه الصلاة والسلام خضوع معرفة لا خضوع قهر، فعن جابر رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار، إذا فيه جمل، لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام فجاء، حتى أتى الحائط، فدعا

(١) هو جزء من حديث رواه أبو هريرة في فضل يوم الجمعة وهو صحيح، وأخرجه أبو داوود: برقم ١٠٤٦ والترمذي: برقم ٤٩١، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي والحاكم: ١/ ٢٧٨ وصححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي، وقد جاء كذلك بلفظ: ".. وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس"، وهو في: المستدرك للحاكم: برقم ١/ ٧٧٣. وفي رواية: "مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً أن تقوم الساعة إلا الجن والإنس..".

البعير، فجاء واضعاً مشفره إلى الأرض، حتى برك بين يديه، قال: فقال رسول الله ﷺ: "هاتوا خطاماً" فخطمه، فدفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس فقال: "إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس"[1]. ودلالة الحديث واضحة بنصيب الكوائن من المعرفة، وإن لم تكن مكلفة.

- وفي الآية الكريمة من سورة الرعد قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣/١٣] وهذا في إطار تسبيح الموجودات، وإن كان لكل منها تسبيحه الذي يتناسب مع ما خلق عليه. وسيأتي (تسبيح الحصا في كفه) عليه الصلاة والسلام..

ولا مانع يمنع من كون التسبيح في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] على الحقيقة؛ على اعتبار أن كل تسبيح يتلاءم مع هيئة المسبِّح وتكوينه.

---

(١) رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والطبراني وغيرهم، وكذا في: دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي والتيمي.

- وإذا كان الحس لا يشهد بذلك، فإنه لا يرتكن لشهادة الحس هنا؛ إذ هو مقصور على ما خلق عليه، فلا يتعداه، وهذه أمور تتعلق بالحقائق المحجوبة عنا بالحس، كما حجب عنا ما بداخل البدن بحجاب الجلد، ومتى كان ما لا يدخل في دائرة الحس لا وجود له؟! وفي هذا المذهب ما فيه من تضييق مساحة الحقائق، وكم من حقيقة لم يلامسها الحس، ولا تقع في دائرته، تبين لنا منها بالكشف عنها ما كان غائباً عنا، وإذا كشف القناع عن الحواس، أو مد في طاقتها، سواء بصورة معجزة أو كرامة، أو آلة قربت البعيد الذي كان قبل التقريب خارج دائرة البصر أو دائرة السمع، أو كبرت الدقيق الذي لا يمكن البصر لدقته أن يقع عليه، عندها رأينا ما لم نكن نرى، وسمعنا ما لم نكن نسمع، وهذا يوضح لنا أن ما خفي عنا لم يخف لأنه غير موجود، بل لكون ما أوتينا من طاقات حسية لا تبلغه، وثمة نموذجان: الأول ما حدث به ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: ".... ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل"[1].

(١) رواه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

وفي رواية عنه: "كنا مع رسول الله ﷺ فدعا بالطعام، وكان الطعام يسبح"[١]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: "إني لشاهد عند رسول الله ﷺ في حلقة، وفي يده حصيات، فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، يسمع تسبيحهن مَن في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى أبي بكر، فسبحن في يده، يسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلى عمر، فسبحن في يده،... ثم دفعهن إلى عثمان، فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا، فلم يسبحن مع أحد منا"[٢]. الحقيقة أن الحصى لا تنقطع عن التسبيح، وقد شملها قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] وعليه، فقول أبي ذر: "فلم يسبحن مع أحد منا" يعني لنا أن حاسة السمع التي كشف قناعها فسمعت أولاً، ردت إلى طاقتها التي لا تتمكن من السماع.

- الأصل إجراء اللفظ على ظاهره ما لم يصرفه عن الظاهر صارف قوي، ومن الصوارف استحالة الظاهر

---

(١) رواه ابن حبان: ٨ / ١٤٤ بسند قوي.

(٢) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة بإسنادين؛ أحدهما برجال ثقات، ورواه البزار بإسنادين؛ أحدهما برجال ثقات، وقال الهيثمي عن إسناد البزار الأول: إسناده صحيح.

عقلاً أو شرعاً، ولذا قالوا: متى ورد اللفظ وجب حمله على الحقيقة في بابه: لغة أو شرعاً أو عرفاً، ولا يحمل على المجاز إلا بدليل يمنع حمله على الحقيقة من معارض قاطع، أو عرف مشهور..

- وقد أشار الفقهاء إلى أن المجاز إذا كثر استعماله كان أدل على الحقيقة منه على المجاز، كالحال في اسم (الغائط) الذي هو أدل على الحدث، الذي هو فيه مجاز، منه على (المطمئن من الأرض).

- اختلاف معاني الألفاظ العربية بأسباب، منها: أنها مترددة بين الحقيقة والمجاز، وقد يحمل اللفظ المعنيين فأكثر،كما في لفظ (القرء) فإنه يفسر بالحيضة وبالطهر.

- إذا قامت قرينة على إرادة الحقيقة وحدها يحمل عليها اللفظ، وإن قامت على قصد المجاز وحده يحمل عليه فقط، وإن لم تقم قرينة على قصد المجاز لانتفائه يحمل على الحقيقة.

- قوله تعالى بشأن الحواريين الذين قالوا للسيد المسيح عليه السلام: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٢].

فإن كان الفعل (يستطيع) من القدرة والاستطاعة

فذاك كفر، وإن كان المعنى هل يجيبك الله إذا سألته ذلك ليطمئن القلب أنك رسوله؟ فالمعنى سائغ، ولا غبار عليهم منه؛ لأن طلب الطمأنينة لا يعني أنهم غير مؤمنين.

- في (ثبت الأصول): "إذا دار الكلام بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل"، وقد قرر هذا القرطبي فقال: "إذا احتمل اللفظ الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يرد دليل يزيلها".

- بين الحقيقة والمجاز

لا بد من الوقوف على قضيتي الحقيقة والمجاز، وقد امتلأت بهما اللغة العربية التي اختارها الله وعاء لخاتمة الرسالات، فما أبعاد كل من هاتين الكلمتين: الحقيقة والمجاز؟ لنصيب حين نطلق كلّاً منهما على ما نطلقه عليه، ولننأى بمعرفتنا تلك عن الخلل في التعبير، أو في فهمه الذي سيؤدي - لا محالة - إلى اضطراب في الحكم...

الحقيقة: مشتقة من الحق، ومن معانيه - لغة - الثبوت، وحقيقة الشيء منتهاه وأصله المشتمل عليه[1].

(١) لسان العرب.

وهي - اصطلاحاً - الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح يقع به التخاطب بالكلام المشتمل على تلك الكلمة، أو: هي لفظ أريد به ما وضع له ابتداء حيث يدل عليه بغير قرينة... والمراد من الوضع: تعيين اللفظ بإزاء معنى تدل عليه بنفسها.. أو بإزاء معنى يدل عليه بنفسه[١]...

أما المجاز فهو اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما، كتسمية الشجاع (أسداً) سمي به مجازاً؛ لأنه - أي اللفظ - جاوز محله وتعدى معناه الموضوع له إلى غيره لمناسبة بينهما، فالمجاز - هنا- خَلَف عن الحقيقة؛ أي: إن اللفظ المستعمل في المعنى المجازي خَلَف لنفس اللفظ المستعمل في المعنى الحقيقي[٢].

فالمجاز: كل كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول، أو: كل كلمة جزت بها ما وضعت به في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً، لملاحظة ما بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي

(١) انظر: الموسوعة الفقهية.

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني.

وضعت له، فإطلاق (اليد) مثلاً على النعمة لما بين النعمة وهذه الجارحة من التباس واختصاص، وهو أن (اليد) لا تكاد تقع للنعمة إلا وفي الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة، ولو أردت النعمة مجردة لأمكنك أن تقول: (اتسعت النعمة) ولا تقول: اتسعت اليد، وتقول: (أقتني نعمة) ولا تقول: أقتني يداً، وحيث تقول: (جلت أياديه لدي) تلحظ الأصل، وهو صنائعه لك، وفوائده الصادرة عن يده، ولا تقول: (اليد) اسماً للنعمة هكذا على الإطلاق.

- وقولك: أنبت الربيع الأزهار، فإسناده على المجاز، بخلاف ما لو أسندت ذلك إلى الحي القادر فإنه على الحقيقة. ثم لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً أو حقيقة عن طريق العقل إلا في جملة من الكلام، كما لا توصف الكلمة المفردة بأنها صدق أو كذب لا توصف بالحقيقة والمجاز، بل لابد من الجملة.

واستطراداً: حد كل واحد من وصفي المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به المفرد، غير حده إذا كان الموصوف به الجملة.

- حدهما في المفرد: كلُّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع الواضع، وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره

(فهو حقيقة). ووصف الكلمة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث إن لها دلالة على الجملة، وحق الحد أن يجري في جميع الألفاظ الدالة.. وحد الخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب مما لا يختص به لسان، وقولك: (الأسد) تريد به السبُع، فقد أردت به ما تعلم أنه وقع له في وضع واضع اللغة. وإذا استعمل للدلالة به على الرجل الشجاع، فهو مجاز لغوي، وعلاقته المشابهة، فهو من نوع المجاز بالاستعارة. ولفظ (اليد) إذا استعمل في العضو المعروف من الجسد فهو حقيقة لغوية، وإذا استعمل للدلالة به على الإنعام، أو على القوة، أو على التسبب في أمر ما، فهو مجاز لغوي، وعلاقته غير المشابهة، فهو من قبيل المجاز المرسل، وكذا قولنا: (سال الوادي) أسندنا به السيلان إلى الوادي. بيد أن الوادي - وهو مكان - لا يسيل، لكن الذي يسيل هو الماء فيه، فهذا الإسناد مجازي علاقته المجاورة، وهو من المجاز العقلي، وهكذا في سائر التعبيرات.

- ولا بد في المجاز من قرينة صارفة عن إرادة ما وضع له اللفظ، والقرينة هي الصارفة عن الحقيقة إلى المجاز؛ إذ اللفظ لا يدل على المعنى المجازي بنفسه دون قرينة.

- من المهم أن نستعرض النصوص الكثيرة التي ظهر فيها الجماد، وهو بحسب ظاهره في حِسِّنا لا إدراكَ فيه، ظهر على أن له لونَ معرفة ونوعَ مشاعر، ونصيبَ دراية، لكن غلافها الحسي، وما خلقت عليه في الظاهر، وبصمة حسها تحبسها عنا، لولا النص والواقع كما سنعرضه، ولعل كثرة هذه النصوص وتنوع مضامينها يمنعان من أن تكون كلها سيقت على سبيل المجاز والتمثيل لمعنى معين يستخلص بالفهم، وبخاصة إذا علمنا أن الأصل في اللغة الحقيقة، وأما المجاز فيأتى في سياق التعبير، ولأغراض منها: البلاغي، كالتشخيص الذي يمثله بث الحياة فيما لا حياة فيه، ومنها: التمكن من التعبير عن معنى بأسلوب غير مباشر إظهاراً للقدرة التعبيرية، وحفزاً للأذهان أن تقف على المراد، ومنها: ما هو دال على سعة اللغة في عطائها المباشر وغير المباشر.

- خذ مثلاً قوله ﷺ: "اقطعوا لسانه عني"، فأعطي من طلب قطع لسانه مئة من الإبل، علماً أن ناساً فزعوا لما سمعوها، وقالوا: أمر بعباس - وهو المراد قطع لسانه - يمثل به، وذلك في غزوة حنين، وفزعهم مشروع إذ حملوا بادئ الأمر (الأمر بالقطع)

على الحقيقة، لا على المجاز، بخلاف من أمر ليقطع فإنه بادر فأعطى المأمور بلسانه أن يقطع مئة ناقة. وكان ذلك لما أعطى الرسول ﷺ العباس بن مرداس أربعاً من الإبل، وأعطى غيره من المؤلفة قلوبهم عشرات منها، فعاتب العباس النبي في شعر قاله، وجاء في الحديث "أشكموه"؛ أي: أعطوه حتى تلجموه، كما قال: "اقطعوا لسانه"، و(الشكم) العطاء على سبيل المكافأة، فهو من العطية التي تمنع من الإيذاء. قال العلماء: وهذا نوع من الرشوة رخص فيه السلف لدفع الظلم.

هذا، وقد تضمن شعرُ العباس الذي عاتب فيه التعجبَ من تصرفه عليه الصلاة والسلام حين أعطاه أقل من غيره، فلم يرق ذلك له.

- تشعر نصوص كثيرة برسوخ الأشياء في مضمار المعرفة إذ التسبيح تنزيه، وهو لب قضايا الإيمان.

أجل، هي معرفة، لكنها معرفة لم ترق إلى ما مكن به الإنسان حيث وضع على كيفية بها يصلح للتكليف، والارتقاء في معارج المعرفة، وإلا لم يبق فارق بينه وبين الأشياء الأخرى غير المكلفة!! مع أنه مكلف، هو ومعه الجن، دون سائر المخلوقات، ما خلا الملائكة.

- الحدود تكاد تنعدم بين الجماد والنبات والحيوان، بل كلها سواء أمام القدرة؛ فالعصا بلمحة انتقلت من مادة نباتية يبست خلاياها وتوقفت عن النمو، فصارت أفعى بكل مواصفاتها، ثم أعيدت سيرتها الأولى، وهي نقلة في نظرنا كبيرة، لكنها ليست بشيء أمام القدرة.

- الأصل أن يبقى النص على ظاهره، كما هو معلوم، ما لم يخرجه عن ظاهره مخرج قوي، بل أقوى في منع الظاهر المتبادر.

- إن نسبة القول إلى النملة التي ذكرناها على أن لها لغة، لا تعني أن قولها كما نحن عليه من القول، بل إذا كانت الألفاظ عندنا تسمع، ولها جرس، فهي لا تسمع من النملة، وليست بمخارج حروف وتدفق هواء، ولولا ما أوتي سليمان لما سمعها ولما فهم ما قالت، ولهذا تفرد بسماعها وفهم ما تقول.

- يحضرني هنا ما يتعلق بالمحكم والمتشابه من الآيات، وصرف المتشابه عن ظاهره؛ حيث استحال الظاهر في حق الله تحكيماً للمحكم فيه، وإعمالاً له، إذ هو " أم الكتاب " بنص الكتاب، وما قرره العلماء في حق المتشابه: أننا نثبت ما ثبت منه قرآناً أو حديثاً

شريفاً، ونسلط عليه المحكم لأنه (أمه) التي يرجع إليها، فإذا بنا أمام تنزيه الله عن الظاهر المتبادر من النص، وإثبات معنى يراد لا محالة بهذا التعبير المتشابه الذي يوهم ظاهره مشابهة الله تعالى للمخلوقات، ونفوض أمر معناه لله، حيث إنه قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧]. وهذا الموقف من المتشابه هو الأسلم والأحكم، أو يسلك معه مسلك الذين ذهبوا إلى تأويل المتشابه بشروطه... نحن أمام هذا قد صرفنا النص عن ظاهره المتبادر، فلماذا سلكنا هذا المسلك؟ لأن الظاهر المتبادر لا يليق بجناب الله تعالى بدلالة المحكم.. ولكن هل هذا يصح في قضية نسبة القول مثلاً أو المشاعر من رضا وغضب إلى الظواهر الكونية؟ وأي خطر أو ضرر يلحق بهذه الظواهر إذا فعلنا ذلك؟ أهو لون من ألوان احترام الحس والمعرفة المستقرة به إزاء ما حولنا من أشياء، لكل منها صفاته الأصيلة، وقد ميزنا في معرفتنا لها بين المعدن والجماد والنبات والحيوان، والعناصر الكونية الأخرى، وهل أقرت الشريعة فينا مثل هذا العطاء المعرفي للأشياء مع الإغماض عن حقائق مستورة عنا في هذا الوجود؟ سأبين - ولو بلا ترتيب- هذه الأمور في سياق الكلام.

- سأعرض مجموعة من النصوص المستلة من الكتاب والسنة، وأذكر ما استطعت من أقوال العلماء فيها، وأترك زخمها يفعل فعله في النفس ليوقفها على بعض أسرار هذا الوجود، مع احترام الظواهر وسماتها كما علمتنا شريعة الله تعالى.

- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٠-٢١]، أسندت الآية الشهادة إلى أعضاء من الإنسان: السمع والبصر والجلد، وجعلت المشهود عليهم ينكرون هذه الشهادة؛ لأنها وجهت ضدهم وفضحتهم، وقد كان هؤلاء الشهود من جملة تكوين هذا الإنسان، وختمت بتعليل واضح أن هذه الشهادة كانت بإنطاق الله لها... وسيأتي بيان ذلك.

- وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥]".

بينت أنه قبل إنطاق الجوارح يقع الختم على أفواه المنكرين لما أسند إليهم من كسب، ثم تبدأ الأعضاء بالإدلاء بالشهادة في المحكمة الربانية، ويستمع إلى

الشهود الذين تمثلهم الأيدي والأرجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٤]، وهنا يطل اللسان على ساحة العرض، لا لينكر كما كان عليه أمره في الدنيا، بل ليقرر ما وقع، وبفصاحة وبيان باهرين...

وهؤلاء جعلوا الدلالة الحالية بمنزلة المقالية مجازاً، وفيه أنه لا يصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة. عند قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥].

- نسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال، حتى إنه كثر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٧٨/ ٤٠] والختم على الأفواه ليس بعدم شهادتها، لكنه منع المحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم، وشهادتها أن يجعل فيها علماً وإرادة وقدرة على التكلم، فتتكلم هي وتشهد بما تشهد، وأصحابها مختوم على أفواههم لا يتكلمون...

- وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري من حديث "يدعى الكافر والمنافق

للحساب... فيعرض ربه عليه عمله فيجحد، ويقول: أي رب! وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول... ثم يقول: فإذا فعل ذلك ختم على فيه، فإني أحسب أول ما تنطق منه فخذه اليمنى.. ثم تلا الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥]".

وقريب منه مع اتحاد المضمون[١] عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً:.... وفيه: "فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي! فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله".

وفي خبر يدل على أن العبد يطلب شاهداً منه، "فيختم على فيه"، ومنه حديثه عليه الصلاة والسلام يبين للناس قاطبة بعض ما سيكون هناك في ساح العرض[٢].. وفيه: "أن العبد يخاطب ربه يقول: يا رب! ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى..."، وهذا بيان لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٨].

- وجاء في البحر المحيط لأبي حيان: "لما سئلوا عما أجرموا فأنكروا، شهد عليهم بما اكتسبوا من

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والبيهقي.
(٢) أخرجه مسلم وأحمد وابن أبي الدنيا.

الجرائم، وكانوا حسبوا أن لا شاهد عليهم، ففي الحديث: "إن أول ما ينطق من الإنسان فخذه... ثم تنطق الجوارح، فيقول: تباً لك،... وعنك كنت أدافع "....".

- لما جهل هؤلاء أمر الشهادة، حيث حصروا فهمهم لها بالشهود من بني آدم، وظنوا ألا شهود سواهم، فهم قد استتروا من الناس حال ارتكابهم المعاصي، وغفلوا عن أن ثمة شهوداً عليهم، ومن أنفسهم. ألا يدل هذا على خطأ فادح حيث لم يدركوا سعة ميادين الشهادة وحصروها في إطار واحد.. ومثله التأني في التناول قضية تناول القول المنسوب إلى السموات والأرض ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٤١/ ١١].

- وقال في البحر: الظاهر أن الجلود المعروفة... وقيل: هي الجوارح كني بها عنها.. وقيل: كنى بها عن الفروج.. وقيل: وعليه أكثر المفسرين، منهم ابن عباس.

- وقال أيضاً: إن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم، وعلى إعادتكم... وإن سؤالهم: "لم شهدتم علينا"؟! لتعاظمهم من شهادتها، وكبر ذلك عليهم، وكذا الافتضاح على ألسنة الجوارح.

- ألا يدل هذا على أن نطق الجلود والجوارح على الحقيقة، وإن كانت اليوم ليس من شأنها النطق كما هي سنة الله في الناطقين، ويدعم ما ذكرنا مسألة (الفدام) حيث يوضع على الأفواه التي استنطقت جوارحها. قال أبو السعود في تفسيره: "تشهد عليهم بأن ينطقها الله، أو يظهر عليها آثار ما اقترفوه". فأنت ترى أنه قدم نطقها نطقاً حقيقياً، وعطف الاختيار الثاني، وفيه: أن النطق هنا ما يظهره الله عليها من آثار المعاصي.

- وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بشهادة (الجلود) شهادة (الفروج) قال أبو السعود: وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١] فإن ما تشهد به من الزنى أعظم جناية، وأجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات... وسؤالهم للجوارح الشاهدة سؤال توبيخ لما ورد أنهم قالوا لها بعد الإدلاء بالشهادة عليهم: "فعنكن كنت أناضل..."، وفي رواية: "بعداً لكنَّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل".

صيغة جمع العقلاء في خطاب (الجلود) وفي قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١]، لوقوعها موقع السؤال والجواب المختصين

بالعقلاء. وقيل: سألوها سؤال تعجب، أو المعنى حينئذ: ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، فإن من قدر على الخلق والإعادة وإرجاع الأجزاء إلى ما كانت عليه لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم.

- وفيها دليل على إعادة البنية الأولى للإنسان؛ إذ لولا ذلك لما صح أن تشهد جلود ليست هي الجلود السابقة التي عافس صاحبها بها ما عافس.

- وقد ساق الرازي في تفسيره ما روي عن ابن عباس أنه في يوم القيامة، يختصمون، فيجحد الجاحد بشركه ويحلف، فيبعث الله شهداء من أنفسهم "جلودهم وأبصارهم و... ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١]". كما أورد عن جابر رضي الله عنه أنه لما رجع مهاجرة الحبشة سألهم الرسول عليه الصلاة والسلام: "ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة".... ومما قالوه عن امرأة عجوز أوذيت، فهددت المؤذي إذ قالت: "سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي... وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون". وعلق الرسول على الخبر بقوله: "صدقت" أي: تلك المرأة بما أخبرت،

ولك أن تقف أمام هؤلاء الذين التقطوا من دار الهجرة نفائس تكشف عن اهتمامات راقية!!

- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٤] إذا كان تفجر الأنهار وخروج الماء منها على الحقيقة، فلم تكون نسبة الخشية إليها على المجاز؟! ألا ترشح الحقيقة في صدر الآية على كون الخشية من بعد على الحقيقة أيضاً؟!.

- قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢]. إذا كان عرض الأمانة يفسر بقيام هذه المخلوقات على هيئة من الخلق لا تمكنها من القيام بالأمانة التي حملها الإنسان بما هُيِّئ فيه لها، فالإشفاق حالة نفسية تشعر بالرهبة إزاء عرض ما يثير الإشفاق على المشفق، وإذا كانت الآية قد أسندت الإشفاق هنا إلى هذه المخلوقات الضخمة، فإن الخشية قد أسندت في الآية السابقة إلى الحجارة.

- قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا

يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ١٩/٨٨-٩٢]. إن مقاربة السموات من التفطر، والأرض من التشقق، والجبال من الخرور هداً في الآيات، على ضخامتها جراء تلك الفرية التي لا تهضمها هذه المخلوقات، ولا تتحمل سماعها، وهذه الغضبة بمظاهرها الكبرى تميط عن معنى التوحيد الساري في ذرات الوجود، التوحيد الصافي الذي لا يقبل الغبش بله التلويث.

- قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤]. أليس في النص إثبات التسبيح لهذه المخلوقات على الحقيقة بدليل نفي الفقه لهذا التسبيح عن المخاطبين؟ وبهذا ينبه من ذهب إلى أن التسبيح عبارة عن دلالتها على عظمة الله تعالى؛ إذ في هذا التأويل ادعاء فقه التسبيح! علماً أن النص قد نفى ذلك، أفلا يدل هذا على أن تفسير التسبيح بما يرجع إلى دلالات التوحيد في هذه الموجودات لون فقه له؛ كيف وقد قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾! وسيأتي ما يعضد أن التسبيح على الحقيقة التي تتناسب مع المسبح.

- وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٦]. وهذا في عالم النبات الذي أثبت له

السجود، وهو لون تقرب فطري من هذه الكوائن لله تعالى، والسجود على المعنى اللائق بهذه النباتات لا يقتضي القامة - قامة الإنسان - التي تقوم لتقرأ القرآن ثم تركع وترفع ثم تهوي ساجدة؛ إذ نسبة الحقائق إلى أصحابها مما يتناسب مع المنسوب إليه، فوجه النهار في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٢]، غير (الوجه) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٩]، غير (الوجه) في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].

- وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢١]. أليس النص واضحاً حسب الظاهر تجاه نسبة الخشوع والتصدع فيما لو أنزل عليه القرآن؛ وذلك جراء الخشية التي فيها لمسة علم بمن يخشى سبحانه؟ وقد قدمنا ذلك من قبل، وزيادة - هنا - مسألة التفكر الذي ترتب على ضرب المثل بما ينال الجبل من هيمنة الخشية!.

- قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٨][(١)]

ففي النص عطاءات بصيرة مرشدة للواعي الحصيف الذي لا ينكر عطاء الحواس، ولا يقف عند حدودها في مضمار المعرفة، فمن عطائه أنه يرشد إلى ألا نحكم في أمر العلوم الكونية بمجرّد ما تطبعه الحواس فينا إثر الملاحظة لها من مشاعرَ ومعانٍ ومفاهيم، ولذا أثبت الحسبان للنفس إثر رؤية الجبال، وبين الحقيقة التي لا تلتقطها العين، وهي ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ أفلا يمكن على هذا ألا نسارع إلى إثبات القول للسموات والأرض على سبيل المجاز، والوقوف منه إنكاراً له على سبيل الحقيقة بناء على ما عرفنا من أمر آلية القول فينا؟

- إن قالوا: هذا - أي حال الجبال - يكون في الآخرة، وهي عالم تظهر فيه قدرة الله تعالى. نقول: الدنيا والآخرة سواء بالنسبة إلى قدرة الله، وقدرة الله تعالى لا تتعلق إلا بالممكن، ولهذا كانت المعجزة أمراً خارقاً للعادة؛ أي جرت مجرى الممكن يظهر على غير ما جرت عليه سنته، إن المستحيل الذاتي

(١) وهي السورة العجيبة في مساراتها.

الذي لا تتعلق به القدرة هنا لا تتعلق به هناك في الآخرة؛ إذ لا يتغير المستحيل عقلاً - وهو الذي لا يقبل الوجود لذاته - بين الدنيا والآخرة. ولهذا ما جاز أن تتعلق به القدرة هناك جاز أن تتعلق به هنا، وبهذا لا يصح ادعاء أن هذا يكون في الآخرة، علماً أن قضية ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في الآية هي من الظواهر الكونية في الدنيا على الرأي الراجح.

- ويتجلى لنا بهذا أن هذا الكون العريض قد عرفنا منه ما عرفنا، وغاب عنا الكثير من حقائقه، ولا يصح ادعاء الإحاطة، ويبنى على ذلك أن الحكم على النص من خلال معارفنا أمر مقبول؛ إذ الآية بينت ما يقع في الرؤية بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾، والناتج ذلك الحسبان الذي يقر في النفس جراء هذه الرؤية ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لم يؤنب عليه النص، لكنه أحاله على الحسبان الذي ليس من اليقين، وإنما هو من الرجحان، ولهذا ما كان من الأمور الكونية التي تكشف عما غاب عنا، أو ما غيب عنا في هذه الدنيا، وبلغنا إياه الرسول ﷺ عبر النص، فالأمر مختلف حيث لا يجوز أن تسلط معرفتنا القاصرة على ما أحطنا به على المضمون المبلغ؛ فنحيله إلى أن التعبير هو من المجاز، وليس من الحقيقة؛ إذ الحقيقة هنا ما بلغه فهمنا عبر

الحواس، ومداركنا عبر التعامل، لا ما هي عليه الحقيقة كما يجليها النص، ولا يمنع هذا احتمال المجاز لأنه واقع فعلاً في أساليب التعبير، وهذا الاحتمال من وراء من ذهب إليه أمام النصوص، بيد أن ثمة مرجحات ينبغي ألا تغفل في التناول، قد يختار المشرع قالباً تعبيرياً يصب فيه المعنى الذي يريد أن نقف عليه، واحتمال كون هذا القالب من المجاز، يظل قائماً في كثير من النصوص، من هنا لا يُخَطَّأُ تخطئة المذنب من نحا هذا المنحى، والتأني في التناول مطلوب، وذو البصيرة لا يتعجل، وإن سوغ ما يحمل على المجاز، فإنه لا يستبعد على وجه الاستحالة ما يمكن حمله على الحقيقة، خاصة وليس ثمة نص قاطع ينفي الحمل على الحقيقة كما في مسألة المتشابه؛ حيث لو حمل على الظاهر المتبادر لأوقع في نسبة ما لا يليق إلى الله تعالى. على أن هناك نصوصاً ممحضة للحقيقة حيث ثبتت قاطعة من مثل تسبيح الحصى في كف الرسول عليه الصلاة والسلام.

هناك نصوص كثيرة تخرج كثرتها القضية عن أن تكون من باب ضرب المثل أو التمثيل أو التشخيص أو الكنايات، وتدل على أن الكون بما فيه قد عبق بحقائق أخفيت عنا لولا النصوص ما درينا بها، وربما أظهرت

لنا كما نبين فيما يلي، ولو على سبيل الإعادة لتأكيد المعنى، كما في حديث جابر رضي الله عنه:

* فعنه رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي ﷺ فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعاً مشفرَه إلى الأرض حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي: "هاتوا خطاماً فخطمه، فدفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس فقال: إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس"[1].

وفي الحديث بيان أن ما بين السماء والأرض من مخلوقات لديها علم بكونه ﷺ رسولاً.....

ثم: أفي الجمادات إدراكات، يمثلها الحب والبغض والبكاء والفرح والغضب والطاعة والخشوع والرهبة والخشية؟ إن من يتتبع النصوص يرى وجود هذه الإدراكات فيما تناولته هذه النصوص، مما يوسع دائرة فهمنا لهذا الكون الذي نعيش في رحابه.

وأختم بعطر المحبة تملأ ذرات ذلك الجبل الرابض على كتف المدينة المنورة، وهو جبل أحد، فعن

(١) رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والطبراني وغيرهم..

أنس ﷺ أن النبي صعد أحداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه عليه الصلاة والسلام برجله، وقال: "اثبت أحد، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان"[(١)]. وبدا شأن الجبل، ومخاطبة النبي له شأن المحب الوامق الذي يتملكه الفرح برؤية محبوبه، ويظهر ذلك بأسلوبه المتفق مع جبلته! وقد ذكر العلماء أن رجفة الجبل حيث كان قوم موسى عليه السلام معه رجفة غضب، كما نضح به النص القرآني، وأما رجفة جبل (أحد) فرجفة طرب، وشتان شتان ما بين الشتين!!...

وحيث آن للقلم أن يضع رحاله بعد ذاك التطواف، فلتكن محطته ترجيح الحقيقة على المجاز في قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، مع بيان أن القول المسند - ههنا - إلى كل من السماء والأرض قول يتناسب مع ما خلقت عليه.

(١) رواه البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبي: "لو كنت متخذاً خليلاً.."، وباب مناقب عمر ﷺ، وباب مناقب عثمان بن عفان ﷺ.